المبحث الثاني

التغيرات الصوتيَّة وبناء الكلام وأثرهم في الدلالة

المطلب الأوَّل: التغيرات الصوتية وأثرها في الدلالة:

وهي التغيُّرات التي تصاحب الأصوات في حال تركيبها ففي الألفاظ القرآنية ترد هذه التغيُّرات في بعض السياقات، وترد من دونها في سياق آخر أو سياقات أخرى. كأن ترد بالإدغام في موضع وبالفك في آخر، أو تستعمل مبدلة حينا وغير مبدلة حينا آخر، أو يجري استعمالها بالإثبات في آية وبالحذف في أخرى، وهذه التغيُّرات لم تكن مجرَّد تغيُّرات صوتيَّة خالية من فائدة دلاليَّة، أو غرض معنويّ، بل إنَّها تحمل من الأغراض الدلاليَّة ما يبهر العقول، ويبهج الأنفس، وسنبيِّن ذلك بإذن الله فيما يأتي:

❖ الابدال الجائز:

ممَّا وقع فيه الإبدال الجائز من الأفعال في القران الكريم: "ادّارأ، وازّيّنت، واثّاقلتم، ويسّمّعون، واطّيّرنا، ويصّدعون، ويخصّمون..." فما كان هذا الإبدال لمجرِّد ظاهرة صوتيَّة، وتيسر نطقيٌّ يخلو من دلالة، وليس وراءه غاية ومعنى، بل مرتبط بالدلالة أوثق الارتباط، ووراءه ما وراءه من معنى إعجازيٍّ، وبلاغيٍّ عظيم وسنتناول ذلك فيما يأتي:

أ- **ادَّارَأْتُمْ:** وردت في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1]، وردت هذه الآية في سياق قصَّة بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام إذ قتلوا رجلاً، فأُسْنِدَ فِيهِ الْقَتْلُ إِلَى الأُمَّةِ،

(١) سورة البقرة: ٧٢.

وَإِنْ كَانَ الْقَاتِلُ وَاحِداً بِاعْتِبَارِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَوْنِهَا فِي مَجْمُوعِهَا وَتَكَافُلِهَا كَالشَّخْصِ الْوَاحِدِ. وَالتَّدَارُؤُ: تَفَاعُلٌ مِنَ الدَّرْءِ وَهُوَ الدَّفْعُ، فَمَعْنَاهُ: التَّدَافُعُ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ خِصَامٌ وَاتِّهَامٌ، وَكَانَ كُلٌّ يَدْرَأُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَدَّعِي الْبَرَاءَةَ وَيَتَّهِمُ غَيْرَهُ، وَكَانَ لِلْقَاتِلِينَ وَالْعَارِفِينَ بِهِمْ حُظُوظٌ وَأَهْوَاءٌ كَتَمُوا فِيهَا[1]، فأخذ كلّ واحد منهم يدفع التهمة عنه بكلِّ ما أُوتي فدلَّت صيغة "**ادَّارأتم**" على شدَّة دفعهم هذه. فالدرء: هو الدفع. وأصل الفعل: تدارأتم قلبت التاء الى جنس الدال فادغما وجيء بهمزة الوصل في أوَّل الفعل للتخلُّص من البدء بالساكن.

و"**التَّدَارُؤُ**" في هذه الآية يحتمل: التَّدَافُعُ، وَهُوَ أَنْ يَدْفَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالأَيْدِي، لِشدَّةِ الاخْتِصَامِ. وَيَحْتَمِلُ: بدفع التهمة فَبَعْضُهُمْ طَرَحَ قَتْلَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَدَفَعَ الْمَطْرُوحُ عَلَيْهِ ذَلِكَ إِلَى الطَّارِحِ، أَوْ بِأَنْ دَفَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِالتُّهْمَةِ وَالْبَرَاءَةِ. وَالضَّمِيرُ فِي: فِيهَا عَائِدٌ عَلَى النَّفْسِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ، وَقِيلَ: عَلَى الْقَتَلَةِ، فَيَعُودُ عَلَى الْمَصْدَرِ الْمَفْهُومِ مِنَ الْفِعْلِ، وَقِيلَ: عَلَى التُّهْمَةِ، فَيَعُودُ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ مَعْنَى الْكَلامِ[2].

ب- **ازَّيَّنت**: وردت في قوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾[3]، أصل الفعل ازَّيَّنَتْ: تزيّنت إذ قلبت التاء الى جنس الزاي فادغما وجيء بهمزة الوصل في أوَّل الفعل لمح الفعل في حالة الإبدال إلى الحالة التي ستصير عليها

(١) ينظر: تفسير المنار: ١/٢٩٠.

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير: ١/٤١٩.

(٣) سورة يونس عليه السلام: ٢٤.

الأرض من اعمار، وزينة حتى يظنّ الناس أنَّهم قد امتلكوا الأرض وهم أهلها كما عبّر القرآن الكريم والله أعلم.

ت- **اثَّاقَلْتُمْ**: وردت في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، "**اثَّاقَلْتُمْ**" الأصل فيه: "**تثاقلتم**" وقع فيه ما وقع في الفعلين السابقين "**اثاقلتم**" فافْتُتحَت الْجُمْلَةُ بِحَرْفِ الاستفهام "ما لكم" للاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ، للتَّقْرِيرِ وَالتَّوْبِيخِ والتقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا الْمُتَضَمِّنَةُ عَلَى أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فَاتِحَةُ التَّحْرِيضِ عَلَى الْجِهَادِ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ الإِنْكَارِيِّ وَتَمْثِيلِهِمْ بِحَالِ مَنْ يُسْتَنْهَضُ لِعَمَلٍ فَيَتَثَاقَلُ إِلَى الأَرْضِ فَنَاسَبَ أَنْ يُنْزَلَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْزِلَةَ الْمُتَرَدِّدِ الطَّالِبِ فِي كَوْنِ جَزَاءِ الْجِهَادِ اسْتِحْقَاقَ الْجَنَّةِ[2]. ولَمَّا ضُمِّن معنى الميل والإخلاد فعدي بـــ"إلى" أي: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم وديياركم، وكان ذلك في غزوة تبوك استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك[3]. ولفظة "**اثَّاقلتم**" بأصواتها وجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل! ويلقيها بمعنى ألفاظه، وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق، فالنفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في

---

(١) سورة التوبة: ٣٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٧/١١، وتفسير القرطبيّ: ١٤٠/٨.

(٣) ينظر: تفسير النسفي: ١١١/٢.

كيانه على عنصر القيد والضرورة وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود، فهذا الثقل متأتٍّ من ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض.. ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع.. ثقلة الدعة والراحة والاستقرار.. ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب.. ثقلة اللحم والدم والتراب.. والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه.

ث- **يَسَّمَّعون:** وردت في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[1]، تقصُّ علينا هذه الآيات الكريمات قصَّة عن الجنِّ والشياطين الذين منعوا من الاستماع بعد البعثة النبوية المطهرة فالفعل "**يسّمّعون**" أصله "**يتسمّعون**" تعرض للإبدال الجائز أيضاً ليعطينا صورة المتنصت الذي يستجمع كل قواه ليضعها في أذنيه كي يسترق السمع فإذا قدر له أنْ يسترق شيئا من الأمر تبعه شهاب ثاقب فأحرقه.

❖ الإبدال وتركه:

ورد الإبدال وتركه في القرآن الكريم كما في: "يذّكّرون- يتذكرون"، و"يضّرّعون- يتضرعون"، و"المصّدّقين- المتصدقين"، و"يدّبّروا- يتدبرون"، و"يزّكّى- يتزكى"، و"المطّهّرين- المتطهرين"، و"اطّيّرنا- تطيّرنا"، و"يخصّمون- يختصمون"، و"يهدّي- يهتدي"، فمن حيث التكوين اللغوي لهذه الكلمات حصل فيها إبدال معلوم فانقلب كلٌّ من الدال والتاء من جنس ما بعده، ثمَّ

(١) سورة الصافَّات: ٦-١٠.

أدغم فيه. وهذه الظاهرة ليست بمعزل عن الدلالة، بل لا بدَّ من إشارة دلاليَّة، ومغزى معنويٍّ من هذا القلب والادغام، علما أنَّ هذه الدلالة ليست مطّردة، بل هي بحسب الموضع الذي ترد فيه، وما يقتضيه سياقها العامُّ. وسنبيِّن بإذن الله ذلك فيما يأتي من شواهد:

أ- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[1]، فكلمة "يهدّي" من حيث البناء هي: يهتدي وحصل فيها إبدال معلوم: بقلب التاء دالا، والفائدة الدلاليَّة من مجيء "**يهدّي**" بتضعيف الدال بينما الأصل: "**يهتدي**" من غير تضعيف الدال؛ لأنَّ التضعيف يفيد المبالغة، أي: بالغ في عدم اهتداء هؤلاء. وبالغ هنا في الآية بعدم اهتدائهم؟ لأنَّ السياق يتكلم عن الأصنام والأصنام ليست كالبشر؛ لأنَّها غير قادرة على فعل شيء، ولم يرد في القرآن نفي الهداية عن الأصنام إلا في هذه الآية. في كل القرآن ورد نفي الهداية عن البشر فجاء بلفظ يهتدي وتهتدي. وإذا فقد السمع والبصر مبالغة في عدم الهداية لذا المبالغة في عدم الهداية جاءت كلمة "يهدّي" فكيف تهتدي الأصنام؟ لذا اقتضى المبالغة. هذا المعنى على قراءة من قرأ بالتضعيف، وتوجد قراءة متواترة أخرى فيكون معناها مراد أيضاً[2].

ب- قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[3].

---

(١) سورة يونس عليه الصلاة والسلام: ٣٥.

(٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل- محاضرات: ٦٩٣، وتفسير البغويّ: ١٣٣/٤.

(٣) سورة الكهف: ٧٨.

ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[1]، أَيْ: هَذَا تَفْسِيرُ مَا ضِقْتَ بِهِ ذَرْعاً، وَلَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِهِ ابْتِدَاءً، وَلَمَّا أَنْ فَسَّرَهُ له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: "تَسْطِعْ" وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الإِشْكَالُ قَوِيّاً ثَقِيلاً، فَقَالَ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فَقَابَلَ الأَثْقَلَ بِالأَثْقَلِ، وَالأَخَفَّ بِالأَخَفِّ، فَقَابَلَ كُلاً بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظاً وَمَعْنًى، وَاللهُ أَعْلَمُ[2].

و"تَسْطِعْ" مضارع "اسطاع" بمعنى: "استطاع" على وزن استفعل، حذف تاء الاستفعال تخفيفاً لقربها من مخرج الطاء، وبقيت الطاء التي هي أصل[3].

وزعم بعضهم أنَّ السين عوض قلب الواو ألفا والأصل أطاع ولا حاجة تدعو إلى أن المحذوف هي الطاء التي هي فاء الفعل ثم دعوى أنهم أبدلوا من تاء الافتعال طاء لوقوعها بعد السين ويقال: "**تستتيع**" بإبدال الطاء تاء، و"**تستيع**" بحذف تاء الافتعال فاللغات أربع كما قال ابن السكيت: ما ألطف حذف أحد المتقاربين وبقاء الآخر في آخر هذا الكلام الذي وقع عنده ذهاب الخضر عن موسى عليهما السلام[4].

ت- قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾[5]، لقد

---

(١) سورة الكهف: ٨٢.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٦٩/٥.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/١٦، ٣٨.

(٤) ينظر: روح المعاني: ١٤/١٦.

(٥) سورة الكهف: ٩٧.

استعمل الفعل مرَّتين مرَّة بالنقص ومرَّة بالتمام: "**اسْطَاعُوا**"، و"**اسْتَطَاعُوا**" فالأوَّل: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: أَنْ يَعْلُوهُ مِنْ فَوْقِه، فالظهور: هو العلو.

فلم يستطيعوا ذلك؛ لِطُولِه وَمَلاسَتِه، والثاني: ﴿وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ مِنْ أَسْفَلِه، فالنقب: هو كسر الرّدم، وعدم استطاعتهم ذلك لارتفاعه وصلابته. وهو إخبار من الله تبارك وتعالى عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَنَّهُمْ مَا قدروا على أن يصعدوا من فَوْقَ هَذَا السَّدِّ وَلا قَدَرُوا عَلَى نَقْبِه مِنْ أَسْفَلِه[1]، وَلَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أَسْهَلَ مِنْ نَقْبِه قَابَلَ كُلاً بِمَا يُنَاسِبُهُ فَقَالَ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِه وَلا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ، وَهُوَ أَشَقُّ مِنْ الصعود إلى أعلاه، فَقَابَلَ كُلاً بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظاً وَمَعْنَى، وَاللهُ أَعْلَمُ[2].

و"**اسْطَاعُوَا**" تخفيف "**اسَتَطَاعُوا**"، والجمع بينهما تفنن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة. فابتدئ بالأخفِّ منهما؛ لأنَّه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف.

ومقتضى الظاهر أن يُبتدأ بفعل "اسَتَطَاعُوا" ويثني بفعل "اسْطَاعُوَا"؛ لأنَّه يثقل بالتكرير، كما وقع في قصَّة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿**قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾[3]، ثمَّ قال جلَّ وعلا: ﴿**ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾[4]، ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٧٧/٥، وتفسير البغوي: ٢٠٥/٥، التحرير والتنوير: ٣٨/١٦.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: ١٦٩/٥، ١٧٧.

(٣) سورة الكهف: ٧٨.

(٤) سورة الكهف: ٨٢.

هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى؛ لأنَّ استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلُّقه، فهو من باب دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى[1].

ث- قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[2]، فكلمة "**يخصِّمون**" أَيْ: يَخْتَصِمُونَ. أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الصَّادِ، والمعنى: أنها تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها، لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون[3]، فضاعف الصاد للمبالغة في شدَّة تعلُّقهم بالدنيا وغفلتهم عن الآخرة ومع المبالغة في هذه الغفلة فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة، لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حساباً. فإذا هم منتهون. كل على حاله التي هو عليها. لا يملك أن يوصي بمن بعده. ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة.. وأين هم؟ إنَّهم مثله في أماكنهم منتهون! ثمَّ ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور. ويمضون سراعا، وهم في دهش وذعر يتساءلون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[4] ثمَّ تزول عنهم الدهشة قليلا، فيدركون ويعرفون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[5] ثمَّ إذا الصيحة الأخيرة. صيحة واحدة. فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش[6].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٨/١٦.

(٢) سورة يونس: ٤٩.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤/ ٢٣.

(٤) سورة يس: ٥٢.

(٥) سورة يس: ٥٢.

(٦) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٩٧٢/٥.

❖ الحذف من الكلم:

تتوفاهم- توفّاهم، تنـــزّل- تتنـــزّل، تذكرون- تتذكرون، تبدّل- تتبدل. الحذف من الفعل يدخل تحت ضابطين في القرآن كله:

أ- يحذف من الفعل إما للدلالة على الاقتطاع من الفعل [1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2]، وقال جلَّ شأنه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[3]، استعمل الفعل المضارع نفسه، لكن حذفت التاء في الآية الثانية "تنـــزّل"؛ لأنَّ التنـــزُّل في الآية الأولى عند الموت تنـــزل الملائكة على الشخص المستقيم تبشرّه بمآله إلى الجنة، وأمَّا الثانية فهي في ليلة القدر، التنزّل في الآية الأولى يحدث في كل لحظة؛ لأنَّه في كلِّ لحظة يموت مؤمن في هذه الأرض. إذن الملائكة في مثل هذه الحالة تتنـــزّل في كلِّ لحظة وفي أيِّ وقت، وفي الآية الثانية يكون التنـــزُّل في ليلة واحدة في العام وهي ليلة القدر. فالتنزّل الأوَّل أكثر استمراريَّة من التنـــزّل الثاني، ففي الحدث المستمرِّ جاء الفعل كاملاً غير مقتطع "**تتنـــزّل**" أمَّا في الثانية في الحدث المتقطع اقتطع الفعل "**تنـــزّل**"[4].

ليدلَّ على انقطاع التنـــزُّل بعد انقضاء هذه الليلة المباركة. والله أعلم.

---

(١) ينظر: لمسات بيانيَّة في نصوص من التنزيل- محاضرات: ٤٥٥.

(٢) سورة فصلت: ٣٠.

(٣) سورة القدر: ٤.

(٤) ينظر: لمسات بيانيَّة في نصوص من التنـــزيل- محاضرات: ٤٥٦.

ب- يحذف من الفعل في مقام الإيجاز ويذكر في مقام التفصيل[1]، فالحذف من باب التعجُّل في الفعل، وسرعة الحدث، وقد ورد في القرآن الكريم من كلمات تمَّ حذف الصوائت الطويلة من آخرها، نحو "**الداع، وينادِ، وسندع، ويمحُ، ويدعُ، والداع**، و"قوله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾[2].

نجد كثيراً من المفسِّرين يعلِّلون هذه الظاهرة شكليّاً، من غير تطرُّق إلى أثرها في الدلالة، فذكروا عمَّا كان من هذه الكلمات فعلاً مضارعاً أنَّه مرفوع لكن أسقطت الواو في الرسم في أغلب المصاحف تبعا لأسقاطها في اللفظ لالتقاء الساكنين، وكان القياس إثباتها رسماً، لكنَّ رسم المصحف لا يلزم جريه على المقياس، فَحُذِفَ الصائت فِي اللَّفْظِ والحظ وَلَمْ يُحْذَفْ فِي الْمَعْنَى؛ لأَنَّ مَوْضِعَهَا رَفْعٌ فَحُذِفَتْ لاسْتِقْبَالِهَا اللامُ السَّاكِنَةُ [3].

ولو كان الأمر كذلك أنَّه شكليٌّ، ولالتقاء الساكنين، فلمَ حذف الصائت من "**الداع**" مع أنَّ ما بعده يبدأ بالهمز فيكون سببا للمدِّ: ﴿ **ٱلدَّاعِ إِلَىٰ** ﴾ فكان حقَّه أن يمدَّ مدّاً جائزاً منفصلاً، فعلَّة حذف الصائت لالتقاء الساكنين إن صلحت في موضع لا تصلح في آخر، من هذا يتبيَّن أنَّ هناك مغزى معنويٍّ، وإشارة دلاليَّة تفيد التعجُّل في الفعل، وسرعة الحدث في كلِّ الشواهد المذكورة وما كان على شاكلتها:

فقد حذف الصائت من "**يدعُ**"، "**والداع**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ** ﴾[4]، فحذف الصائت من

---

(١) ينظر: لمسات بيانيَّة في نصوص من التنـــزيل- محاضرات: ٤٥٦.

(٢) سورة العلق: ١٧-١٨.

(٣) ينظر: تفسير القرطبيِّ: ٢٢٦/١٠، ٢٥/١٦، وروح المعاني: ٣٤/٢٥.

(٤) سورة القمر: ٦.

"**يدعُ**"، و"**الداع**" فيه إشارة إلى سرعة الموقف، ومفاجأة الناس بالساعة كما جاء ذلك في آيات أُخَر.

وكذلك حذف الصائت من "**يدعُ**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾[1]، فهو إشارة إلى سرعة رغبته في تحصيل ما يريد، وعجلته، كم دلَّت آيات أخرى على عجلة الإنسان، فحذف الصائت هنا إشارة إلى تلك العجلة.

وكذلك حذف الصائت من "**يمحُ**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2]، فحذف الصائت وكأنَّ فيه إشارة إلى سرعة محو الباطل، وأنَّه لا يمكث في الأرض إلا قليلا، لذلك محا الله باطل الكفَّار وأظهر الإسلام بعد أن كان غريبا محاربا، وأغلب أتباعه الضعفاء.

وكذلك حذف الصائت من "**سندعُ**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[3]، فحذف الصائت للفرق بين الدعوتين: دعوة الكافر لأصحابه، ودعوة الله لخزنة النار وهم أسرع، فكان في الحذف إشارة إلى سرعة تلبيتهم الدعوة.

فكلُّ ما جاء في القرآن الكريم من الحذف في الكلمات اسماً أو فعلاً هو لأحد الأمرين السابقين وهما:

١- للدلالة على أن الحدث أقلّ.

٢- أن يكون في مقام الإيجاز[4]. والله أعلم.

---

(١) سورة الإسراء: ١١.

(٢) سورة: الشورى: ٢٤.

(٣) سورة العلق: ١٨.

(٤) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني- محاضرة: ١٠٨.

❖ الإدغام وفك الإدغام:

من الصيغ المشتركة في العربيَّة هي ادغام المضاعف، فيأتي في حالة الجزم أحيانا مدغما، وأحيانا غير مدغم، وقد وردت الحالتان في القرآن الكريم، نحو: "يضارَّ، ومستقرّ، ويشاق- يشاقق، ويرتد- يرتدد". ولم يقف أكثر من المفسِّرين عند هذه الظاهرة كثيراً، بل أغفلها بعضهم، واكتفى بعض آخر بالإشارة إلى جواز الوجهين في الاستعمال، فذكر أنَّ: فكَّ الإدغام في المجزوم لغة الحجازيِّين، وقد أنزل الله جلَّ وعلا القرآن الكريم بلغة الحجازيين إلا قليلاً، فإنَّه نزل بلغة تميم، فإنَّ إدغام المجزوم لغة تميم؛ ولهذا قلّ[1].

وهذا لا يعطي الفائدة الدلاليَّة للبناء الصوتيّ، والصرفيّ، علما أنَّ عدم ذكر المفسِّرين له ليس عن عدم علم، أو قصور، أو تقصير معاذ الله أن يتَّهم علماؤنا بذلك، بل؛ لأنَّ ما كان في عصورهم علما شائعا صار اليوم في عصرنا مندرسا، وما كان يستغنى عن ذكره لانتشار علمه بين الناس صار اليوم لا يستغنى عن ذكره.

فنقول وبالله التوفيق: إنَّ أهمَّ فائدة دلاليَّة، وأشهر غرض معنويّ في مثل هذه الظاهرة هو إرادة التوسّع في المعنى بإيراد صيغة مشتركة فتكون كلُّ المعاني مقصودة، وإن أراد أحدها ذكر صيغته الخاصَّة[2]، كما في الأمثلة الآتية:

أ- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[3]، فإنَّ "لا" ناهية وليست نافية بدليل الراء في "يضارَّ" مفتوحة. فهل مبنيَّة للفاعل أو

---

(١) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/١٥٥.

(٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنـــزيل- محاضرات: ٨٩٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٨٢.

المفعول؟ أي: لا يضره أحد. أو لا يضارِر، هو بأنْ لا يضر أحداً؟ نقول هي تحتمل الاثنين، فالمعنى يحتمل أنَّ الكاتب والشهيد يضغط عليه ويضرَّ عليه ويهدَّد فيغير من شهادته هذا المعنى محتمل.

أو أنَّ الشهيد لا يريد أن يشهد لأسباب في نفسه، يغير في الشهادة. لا يضارَر أو لا يضارِر؟ ولو أراد التنصيص على أحدهما لفكّ الإدغام، فيكون إمّأ "لا يضارَر"، أو "لا يضارِر" فيكون المنصوص قطعاً هو المقصود، ولكن لَّما كان المعنيان مقصودين جيء بصيغة تشملهما كليهما، ولو فكَّ الادغام لجعل هناك عطف، لكنَّه أوجز تعبيراً، فيكون المطلوب منع الضرر من الكاتب والشهيد ومنعه عنهما أيضاً في نفس الآية وبدل أن يقول: "ولا يُضارَر ولا يُضارِر كاتب ولا شهيد" جاء بالصيغة التي تحتمل المعنيين وهي كلمة "يُضارّ"[1].

وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾[2]، فالمعنى بهذه الصيغة المحتملة البناء للفاعل، والبناء للمفعول، بأن لا يوقع عليها ضرر من جهة الزوج بأن يضرَّها إذا كانت مطلقة. وهي عليها أن لا تضرَّ زوجها بحيث تمنع ابنها. فالمعنيان مرادان وكلاهما منهيٌّ عنه؛ لذلك جاء بالفعل لم يفكَّ ادغامه، ليشمل المعنيين[3].

لذلك لَّما أراد التنصيص على معنى واحد من المعاني المحتملة فكَّ الادغام،

---

(١) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني- محاضرة: ١١١، ١٢٦، ولمسات بيانيَّة في نصوص من التنزيل- محاضرات: ٥٦٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٣.

(٣) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني- محاضرة: ١٢٦.

وبيَّن المعنى هل هو للفاعل، أو للمفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾[1]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾[2]، فإنَّه بيَّن في الآيتين أنَّ المراد هو البناء للفاعل؛ لذلك فكَّ الادغام، وبيَّن حركة البناء وهي كسر ما قبل الآخر، فكان هو المعنى المراد تحديداً؛ لأنَّه منصوص عليه. والله أعلم.

ب- قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾[3]، فالمستقر يحتمل المصدر، أي: إلى ربك الاستقرار، ويحتمل الزمان، أي: يبقون ما يشاء الله في المحشر ثم يأمر الله تعالى بالقضاء بينهم، ويحتمل المكان، أي: موضع الاستقرار وهو الجنة أو النار. ولَّما جيء بصيغة تحتمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يخصَّ أحداً منها دلَّ على أنَّ المقصود من هذه الآية كل المعاني المحتملة فالاستقرار إليه ومكان وزمان الاستقرار إليه فإليه المستقر. إذن هي جمعت ثلاثة معاني: المصدر واسم المكان واسم الزمان وهي كلُّها مرادة مطلوبة وليس هناك قرينة تصرف إلى أحد هذه المعاني فصارت كلُّها مقصودة، وهذا من باب التوسّع في المعنى[4].

وبالجملة فإنَّ الإدغام له دلالة خاصة وهي ما يحمله من معاني الخفاء والاستتار والإضمار، أمَّا الفكُّ فهو يعني الجلاء والمجاهرة والإظهار. وهذه المعاني تكاد تكون مطّردة في جميع الأمثلة التي تشملها هذه الظاهرة الصوتيَّة.

---

(١) سورة النساء: ١١٥.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

(٣) سورة القيامة: ١٢.

(٤) ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني- محاضرة: ١٠٩.

المطلب الثاني: بناء الكلام وأثره في الدلالة:

من الثوابت في البناء النحوي أنَّ الجملة أساس الكلام المفيد، ولا يعدُّ الكلام كلاماً إذا لم يكن مفيد فائدة يحسن السكوت عليها، ومن هذا المنطلق، كانت دراسات التلاؤم الصوتيِّ ومدى ارتباطه بالدلالة المقصودة، وكذلك الوقف والابتداء، والفواصل، فأغلب ذلك مرتبط ببناء الجملة، وتمام المعنى الذي تؤدِّيه، ولذلك فإنَّنا سنتناول ذلك بإذن الله فيما يأتي: التلاؤم الصوتي والدلالة[1].

من المسَّلَم به والمقطوع بصحَّته أنَّ القرآن الكريم كلَّه متلائم في الطبقة العليا، والفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض[2]، «والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد. وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات؛ ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام»[3]، فقد استبعد العرب جملة من الألفاظ لا تنسجم صوتياً في تداخل حروفها، وتنافر مخارجها، سواء أكانت قريبة أم بعيدة «فإن الجيم لا تقارن الفاء ولا القاف ولا الطاء

---

(١) آثرنا مصطلح: التلاؤم الصوتيّ على مصطلح الموسيقى تأدُّباً مع القرآن الكريم لما للموسيقى من تشعُّب في المزامير وآلات اللهو، ولأنَّه مصطلح أعجميٌّ دخيل، ومصطلح التلاؤم الصوتيّ مصطلح عربيٌّ أصيل استعمله أسلافنا من العرب المسلمين. فيكون لنا فيه سلف. وقد مرَّ التنبيه على هذا في الفصل الثاني. المؤلِّفان.

(٢) المصدر نفسه: ٩٥.

(٣) النكت في إعجاز القرآن: ٩٦.

ولا الغين بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير»[1]، فمن غير الوارد اجتماع الأصوات المتقاربة جدّا أو المتباعدة جدّاً، سواء في موضع النطق أو الصفات. والتلاؤم الصوتيُّ لا يتعلّق بطبيعة الحروف في حدّ ذاتها، وإنّما يتعلّق بالحركات أيضاً. وذلك من نحو الانتقال من الضمّة إلى الكسرة أو العكس، ومن نحو وجود أربع حركات لوازم في الكلمة الواحدة، أو من نحو التوافق بين الفتحة والحروف الحلقيّة وغيرها. وفي هذا دلالة على «امتياز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات»[2]، وسنأخذ سورة الفجر مثالا على هذا النوع سورة الفجر:

لقد تضمَّنت هذه السورة العظيمة أقساما عدَّة، لكلٍّ قسم خاصِّيَة في أصواته ومعانيه، ففي فاتحتها جمال هادئ رفيق ندي السمات، يحاكي المشهد الكونيَّ الرقيق، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا لك المشهد: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[3]، فهو يضم هذه المشاهد والخلائق. ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيفة ساعة تنفس الحياة في يسر، وفرح، وابتسام، وإيناس ودود ندي، والوجود الغافي يستيقظ رويدا رويدا، وكأن أنفاسه مناجاة، وكأن تفتحه ابتهال، الجمال الحبيب الهامس اللطيف. الجمال

(١) البيان والتبيين: ٦٩/١.

(٢) بحوث لغوية: ٢٨.

(٣) سورة الفجر: ١-٤.

الذي لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية الطليقة؛ لأنه الجمال الإبداعي، المعبر في الوقت ذاته عن حقيقته.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾[1]؟ وهو سؤال للتقرير، أي: إنَّ في ذلك قسماً لذي لب وعقل. إنَّ في ذلك مقنعا لمن له إدراك وفكر. ولكن صيغة الاستفهام – مع إفادتها التقرير– أرق حاشية، فهي تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق! أما المقسم عليه بذلك القسم، فقد طواه السياق، ليفسره ما بعده، فهو موضوع الطغيان والفساد، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد، فهو حق واقع يقسم عليه بذلك القسم في تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الإجمال.

ثمَّ بعد ذلك جاءت الإشارات السريعة لمصارع الغابرين المتجبرين، وجرسها بين بين. فهي كحلقة الوصل بين هدوء الفاتحة، وشدَّة الزجر والتخويف: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[2]، بدأ هذ القسم بصيغة الاستفهام، وهي في هذا السياق أشدُّ إثارة لليقظة والالتفات. والخطاب للنبي ﷺ ابتداء. ثمَّ هو لكلٍّ من تتأتَّى منه الرؤية، أو التبصُّر في مصارع أولئك الأقوام، وكلُّها ممَّا كان المخاطبون بالقرآن أوَّل مرة يعرفونه وممَّا تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة، وإضافة الفعل إلى "رَبَّكَ" فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة. وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة، وعسف الجبارين

(١) سورة الفجر: ٥.

(٢) سورة الفجر: ٦-١٤.

من المشركين، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد. وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم.

فربُّك راصد لهم ومسجل لأعمالهم. فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب. حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد. ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان.

ثمَّ يأتي بعد ذلك بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانيَّة وقيمه. وهي ذات أسلوب خاصّ في السورة تعبيراً وجرساً: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[1].

ثمَّ يرد الله جلَّ وعلا على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات. وهي تشمل نوعين من العبارة والصوت: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2]، فهو وسط في شدَّة الجرس بين التقرير الأول والتهديد الأخير! فهو تنديد بهذا الواقع، وردع عنه، يتمثل في تكرار كلمة "كَلا" كما يتمثَّل في بناء التعبير وإيقاعه، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه. وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة، بعد تصوير خطأ تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء.

---

(١) سورة الفجر: ١٥-١٦.

(٢) سورة الفجر: ١٧-٢٠.

ويلحظ أن هذا النوع الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم. فقد جاء بعده: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[1]، فتظهر الشدَّة في أصواته ومعانيه، ليعظم فيه الزجر، والتخويف من يوم الوعيد. فجاء بالتهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته، بعد الابتلاء ونتيجته، في جرس قويٍّ شديد. ودك الأرض، تحطيم معالمها وتسويتها وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة. فأما مجيء ربك والملائكة صفا صفا، فهو أمر غيبي لا ندرك كيفيَّته ونحن في هذه الأرض، بل نثبته بحقيقته مجيئ حقٌّ وحقيقة يليق بالله تعالى كما هو سبحانه وتعالى أخبر به، وكذلك نثبت كلَّ ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء والصفات من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل على طريقة السلف الصالح ﷺ لا نحيد عن منهجهم وعقيدتهم قيد أنملة ولا أقلَّ من ذلك. ومع هذا فهو أمر ينبئ بالجلال والهول. وكذلك المجيء بجهنم. نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى. فأمَّا حقيقة ما يقع وكيفيته فهي من غيب الله المكنون ليومه المعلوم.

وإنَّما يرتسَّم من وراء هذه الآيات، ومن خلال بنائها وأصواتها ودلالاتها الشديدة الأسر، مشهد ترجف له القلوب، وتخشع له الأبصار. والأرض تدك دكا دكا! والجبار المتكبِّر يجيء، ويقف الملائكة صفا صفا. ثم يجاء بجهنم فتقف متأهِّبة هي الأخرى!

---

(١) سورة الفجر: ٢١-٢٦.

﴿...يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[1]، الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء. والذي أكل التراث أكلا لما، وأحب المال حبا جما. والذي لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين. والذي طغى وأفسد وتولى.

يومئذ يتذكر. يتذكر الحق ويتعظ بما يرى.. ولكن لقد فات الأوان ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾. ولقد مضى عهد الذكرى، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحدا! وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا! وحين تتجلى له هذه الحقيقة: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾.. يا ليتني قدمت شيئاً لحياتي هنا. فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة. وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها. يا ليتني.. أمنية فيها الحسرة الظاهرة، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة!

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾. إنَّه الله القهار الجبار. الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد. والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد. وعذاب الله ووثاقه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة.

المنوعة في ثنايا القرآن كله، ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم. أو من عذاب الخلق جميعا ووثاقهم. وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعون،

---

(١) سورة الفجر: ٢٣-٢٦.

وإكثارهم من الفساد في الأرض، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال. فها هو ذا ربكم -أيها النبي ﷺ وأيها المؤمن- يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم. ولكن شتان بين عذاب وعذاب، ووثاق ووثاق.. وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر. فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون. فسيعذَّبون هم ويوثقون، عذاباً ووثاقاً وراء التصورات والظنون! وفي وسط هذا الهول المروع، وهذا العذاب والوثاق، الذي يتجاوز كل تصور تنادى "النَّفْسُ" المؤمنة من الملأ الأعلى بالبشرى والسكينة والطمأنينة بسياق يفيض نداوة ورقَّة ورضى وطمأنينة. تتناسق فيها الأصوات الدلالات: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1]، فكم يشعر لفظ: "المطمئنة" بالأمن والراحة، والبشر، فهي كما كانت مطمئنَّة إلى ربها. مطمئنة إلى طريقها. مطمئنة إلى قدر الله بها. مطمئنة في السراء والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء. فاليوم هي مطمئنَّة من العذاب.

وفي وسط الشد والوثاق، الانطلاق والرخاء: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ بهذه النداوة التي تفيض على الجوِّ كله بالرحمة وبالرضى.. ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ المقربين المختارين لينالوا هذه القربى ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ فيكاد القارئ، أو السامع يتنسَّم البشرى أرواح الجنَّة. منذ النداء الأول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، ألا إنَّها الجنة بأنفاسها الرضية الندية، تطلُّ من خلال هذه الآيات[2].

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الأقسام المتعددة في السورة. والتلاؤم الحاصل بين أصواتها في تعبيرها وفي جرسها وفي معانيها. والله تعالى أعلى وأعلم.

---

(١) سورة الفجر: ٢٧-٣٠.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٠٩١-٣٠٩٦.

❖ الوقف والابتداء وأثرهما في الدلالة:

من علوم القرآن الكريم علم الوقف، وهو ممَّا له صلة مباشرة بعلم الصوت، فهو في حقيقته: «عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمناً يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة لا بنية الإعراض، ويكون في رؤوس الآيات وأوساطها، ولا يأتي في وسط الكلمة، ولا فيما اتصل رسماً»[(١)]، وهو من خصائص التلاوة للقرآن الكريم، وَلِذَلِكَ حَضَّ الأَئِمَّةُ عَلَى تَعَلُّمِه وَمَعْرِفَتِه قال عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: «التَّرْتِيلُ مَعْرِفَةُ الْوُقُوفِ وَتَجْوِيدُ الْحُرُوفِ»[(٢)]، فهو باب عظيم القدر جليل الخطر؛ لأنَّه لا يتأتَّى لأحد معرفة معاني القرآن الكريم، ولا استنباط الأدلَّة الشرعية منه إلا بمعرفته[(٣)]، ومن فوائده بيان موضع الوقف عند الاستراحة لغرض الفصل، فلا يجوز الفصل بين كلمتين حالة الوصل، فتقف عند اللفظ الذي لا يتعلق ما بعده به، ويحدث غالباً عند آخر حرف من الفاصلة، كما يحدث في سواه. ولا يصح الوقف على المضاف دون المضاف إليه، ولا المنعوت دون نعته، ولا الرافع دون مرفوعه وعكسه، ولا الناصب دون منصوبه وعكسه، ولا إنَّ أو كانَّ أو ظنَّ وأخواتهنَّ دون اسمها، ولا الوقف على اسمها دون خبرها، ولا المستثنى منه دون الاستثناء، ولا الموصول دون صلته، اسمياً أو حرفياً، ولا الفعل دون مصدره، ولا حرف دون متعلقه، ولا شرط دون جزائه، فأثر ذلك في بيان المعنى أمر في غاية الوضوح، وأهميته تتمثل في جانبين: تبيين معاني القرآن الكريم وتعريف مقاصده، حتى لا يخل بالمعنى أو يوقع في اللبس.

---

(١) الاتقان في علوم القرآن: ١/٢٤٤.

(٢) النشر في القراءات العشر: ١/٢٢٥.

(٣) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ١/٢٨٣.

والمنع من الوقف قد لا يراد ببعضه التحريم الشرعيُّ، وإنَّما المراد هو عدم الجواز في الأداء القرآني، ممَّا تكون به التلاوة قائمة على أصولها، والملحظ الصوتي متكاملاً في التأدية التامة لأصوات الحروف ودلالاتها؛ لذلك قسِّم الوقف إلى أربعة أقسام: تَامٍّ مُخْتَارٍ، وَكَافٍ جَائِزٍ، وَحَسَنٍ مَفْهُومٍ، وَقَبِيحٍ مَتْرُوكٍ[1].

١- **الوقف التَّامُّ**: هُوَ الوقف الَّذِي لا يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ مِمَّا بَعْدَهُ فَيَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ وَالابْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ وأكثر ما يوجد عند رؤوس الآي غَالِباً كَقَوْلِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَثْنَائِهَا كَقَوْلِه: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[2]، فالوقف على "**أَذِلَّةً**" والابتداء بـــ"**وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**" هو وقف تامٌّ؛ لأَنَّهُ انْقَضَى كَلامُ بِلْقِيسٍ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. ومن أمثلته في غير رؤوس الآي كلمة «نعم» في قول الله تبارك تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، فالوقف على كلمة "**نعم**" في هذه الآية وقف تامٌّ؛ لأنَّ ما بعدها غير متعلق بها، إذ ليس "**فأذن مؤذن**" في الآية من قول أهل النار[4].

٢- **الوقف الْكَافِي**: هو الوقف الْمُنْقَطِعُ فِي اللَّفْظِ الْمُتَعَلِّقُ فِي الْمَعْنَى: فَيَحْسُنُ

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٥/١، والبرهان في علوم القرآن: ٣٥٠/١.

(٢) سورة النمل: ٣٤.

(٣) سورة الأعراف: ٤٤.

(٤) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢٨٥/١ والبرهان في علوم القرآن: ٣٥٠/١-٣٥١.

الْوَقْفُ عَلَيْهِ وَالابْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ أَيْضاً نَحْوُ قول الله تبارك تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾ الآية[1]. فالوقف على "**أُمَّهاتكم**" والابتداء بِمَا بَعْدَ ذَلِكَ هو وقف كاف؛ لأنَّ كلمة "**أُمَّهاتكم**" "منقطعة في اللفظ عن" "**بناتكم**".

وَمن الوقف الكافي الوقف على رَأْسِ كُلِّ آيَةٍ بَعْدَهَا "**لامُ كَيْ**"، وَ"**إلا**" التي بِمَعْنَى "**لَكِنْ**"، وَ"**إِنَّ**" الشَّدِيدَةُ الْمَكْسُورَةُ، وَالاسْتِفْهَامُ، وَ"**بَلْ**"، وَ"**أَلا**" الْمُخَفَّفَةُ، وَ"**السِّينُ**"، وَ"**سَوْفَ**" لِلتَّهْدِيدِ، وَ"**نِعْمَ**" وَ"**بِئْسَ**" وَ"**كَيْلا**"، بشرط أن لم يَتَقَدَّمْهُنَّ قَوْلٌ أَوْ قَسَمٌ[2].

٣- **الوقف الْحَسَنُ**: هُوَ الوقف الَّذِي يَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَيْهِ وَلا يَحْسُنُ الابْتِدَاءُ بِمَا بَعْدَهُ؛ لتعلُّقه به نَحْوَ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، فالوقف على اسم الجلال "**الله**" حسن، لكن لا يحسن الابتداء بـــ"**ربِّ العالمين**"؛ لأنَّها متعلِّقة بما قبلها لفظاً[4].

٤- **الوقف الْقَبِيحُ**: هُوَ الوقف الَّذِي لا يُفْهَمُ مِنْهُ الْمُرَادُ، أو يقتضي تغيير المعنى: كما في قوله تبارك وتعالى وتقدَّس: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5]،

---

(١) سورة النساء: ٢٣.

(٢) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢٨٦/١، والبرهان في علوم القرآن: ٣٥١/١-٣٥٢.

(٣) سورة الفاتحة: ٢.

(٤) ينظر: الاتقان في علوم القرآن: ٢٨٦/١، والبرهان في علوم القرآن: ٣٥٢/١.

(٥) سورة المائدة: ١٧.

فالْوَقْفِ عَلَى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ﴾، فلا يجوز الوقف على "**قالوا**" والابتداء بـــ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ فهو فصل بين القول ومقوله؛ وهذا يغيِّر المعنى فبعد أن كان حكاية عن قولهم يكون استئنافاً، وكأنَّه كلام مثبت، وهو مَعْنَى مُسْتَحِيلٌ بِهَذَا الابْتِدَاءِ وَمَنْ تَعَمَّدَهُ وَقَصَدَ مَعْنَاهُ فَقَدْ كَفَرَ[1].

ويتبيَّن ممَّا تقدَّم أنَّ الوقف والابتداء هما مرتبطان بالدلالة والمعنى لا ينفكَّان عنهما، وقد بيَّن ذلك السيوطيُّ فقال: «وهو فنٌّ جليل وبه يعرف كيف أداء القرآن ويترتَّب على ذلك فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة وبه تتبيَّن معانى الآيات ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات»[2]، فلولا المعنى وتأثُّره بالوقف والابتداء لما كان هذا التفصيل، والاعتناء بهما في الدراسات القرآنيَّة خاصَّة، واللغويَّة عامَّة، فالدلالة هي قطب الرحى للوقف والابتداء.

❖ الفاصلة القرآنيَّة والمعنى:

الفاصلة من مصطلحات القرآن الكريم خاصَّة: وهي تعني الكلمة الأخيرة في الآية، فهي خواتم الآي، وهذه الخواتم: الفواصل، لم تكن بمعزل عن الدلالة والمعنى قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «وأمَّا "**الفواصل**": فهي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة، والإسجاع عيب، لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة»[3]، ولا يعني إغفال باب التلاؤم الصوتي، في ترتيب الفواصل القرآنية، فهي مرادة بنفسها صوتيّاً

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٣/٣٣٢، والبرهان في علوم القرآن: ١/٣٥٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/٣٤٢.

(٣) إعجاز القرآن للباقلانيّ: ٢٧٠، وينظر: الاتقان في علوم القرآن: ١/٢٨٦، والبرهان في علوم القرآن: ١/٥٣.

ومعنويّاً، ويضاف إليها غيرها من الأغراض البلاغيَّة، والبيانية، مما هو مرغوب فيه عند علماء البلاغة، فهي مغايرة للسجع الذي كان معروفا قبل نزول القرآن الكريم، لأنَّ السجع مهمَّته لفظية بحتة فهو يأتي لتناسق أواخر الكلمات في الفقرات وتلاؤمها، فيكون الإتيان به أنى اتفق لسد الفراغ اللفظي، لكنَّ الأمر مختلف في الفاصلة القرآنية فهي تأتي لمهمَّة لفظية معنوية بوقت واحد، فلا تفريط في الألفاظ على سبيل المعاني، ولا اشتطاط بالمعاني من أجل الألفاظ، في نسق عجيب فريد لا يجد الإنسان وصفاً له أدقَّ من الإعجاز، بينما يكون السجع في البيان التقليدي مهمة تنحصر بالألفاظ غالباً، لذلك ارتفع مستوى الفاصلة في القرآن بلاغياً ودلالياً عن مستوى السجع فنياً، وإن وافقه صوتياً، لذلك نجد التنقل في فواصل القرآن الكريم، فلا يلتزم فيها الوقوف عند حرف معين دائما بل يلتزمه في مواضع، ولا يلتزمه في مواضع، ويجمع بين الالتزام وعدمه في مواضع أخرى، والانتقال من الوقوف على حرف إلى الوقوف على حرف آخر، أو صيغة تعبيرية أخرى في فواصل القرآن الكريم، أمر مطَّرد وشائع، وأمثلته لا تحصى كثرة، وسنذكر أمثلة على ذلك فيما يأتي:

١- قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[1]، فقد تقدَّم المفعول به في الآيتين، وهو اليتيم في الأولى، والسائل في الثانية، وحقَّهما التأخير في صناعة الإعراب، وقد جاء ذلك مراعاة لنسق الفاصلة من جهة، وإلى الاختصاص من جهة أخرى، للعناية في الأمر، فجمع بين الاختصاص ونظم الكلام، بتناسب دلاليٍّ وتلاؤم صوتيٍّ فريد[2]، ونرى

(١) سورة الضحى: ٩-١٠.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٣٩/٢.

الإيحاء النفسي للكلمة القرآنية ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أعمق وأدقُّ من أن يضبط بتفسير القهر: بالظلم، أو التسلُّط، أو غلبته على ماله، فلا الظالم، ولا التسلط بما يؤذى، ولا منع الحق، ببالغ في التأثير ما يبلغه قوله تعالى: فلا تقهر. إذ يجوز أن يقع القهر، مع إنصاف اليتم، وإعطائه ماله، وعدم التسلط عليه بالأذى: لأن حساسية اليتم، بحيث تتأثر بالكلمة العابرة، واللفتة الجارحة عن غير قصد، والنبرة المؤلمة بلا تنبُّه، وإن لم يصحبها تسلُّط بالأذى أو غلبة على ماله وحقِّه والله أعلم[1].

وقد جانب الدقَّة والصواب الاستاذ إبراهيم أنيس عندما أرجع ذلك إلى جانب التلاؤم الصوتيّ فقط، أي: لتلاؤم الفاصلة القرآنية صوتيّاً[2]، وهو رأي مرفوض؛ لأنَّ المقصود في المقام الأول ليس النهي عن قهر اليتيم ونهر السائل، وإنَّما الرحمة باليتيم والسائل، ولذلك تقدم المفعولان على فعليهما، ولو كان القصد غير ذلك لتأخَّرا وجاءا على نسق الكلام المحفوظة رتبته[3].

٢- قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[4]، لقد اجتمع في هذه الفواصل التلاؤم الصوتيِّ مع الدلالة الدينيَّة، فأدَّت غرضين في وقت واحد، فهذا الصوت المجلجل. ذو النبرات الصوتية الرتيبة. والنسق المتوازن: "**العقبة، رقبة، مسغبة، مقربة، متربة**، أصداء

---

(١) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم: ٥٢/١.

(٢) ينظر: من أسرار العربية: ٣١٢.

(٣) ينظر: بحوث لغوية: ٥٨.

(٤) سورة الضحى: ١١-١٦.

صوتية متلاحقة، في زنة متقاربة، زادها السكت تأثيراً وتلاؤما، فجمع بين التحضيض والدفع والترغيب، ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾. إنه ليس تضخيم العقبة، ولكنه تعظيم شأنها عند الله، ليحفز به الإِنْسانَ إلى اقتحامها وتخطيها مهما تتطلب من جهد ومن كبد. فالكبد واقع لا محالة. وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده، ولا يذهب ضياعا وهو واقع على كل حال، ثمَّ يبدأ بكشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمسّ الحاجة إليه: فك الرقاب العانية، وفكُّ الرقبة هو المشاركة في عتقها، بخلاف العتق فهو الاستقلال بهذا. وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة، وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسَّة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص، والذي تواجهه النفوس جميعا، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[1]، ومن لم يتخطَّ العقبة واستمرَّ بكفره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾[2]، فنالوا جزاء كفرهم، وعدم إيمانهم بأنَّهم أصحاب المشأمة ويدخلون النار. والله أعلم[3].

---

(١) سورة البلد: ١٧.

(٢) سورة البلد: ١٨-١٩.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٩١١-٣٩١٢.